.... كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل....
* البقرة:٢٦٥*

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هـذا النص القرآني جاء في العشر الأخير من سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها٢٨٦ بعد البسملة، وهي أطول سور القرآن الكريم على الإطلاق، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى تلك المعجزة التي أجراها ربنا(تبارك وتعالى) على يدي نبيه موسى(على نبينا وعليه من الله السلام) حين تعرض شخص من بني إسرائيل في زمانه للقتل، ولم يعرف قاتله، فأوحى الله(تعالى) إلى عبده موسى أن يأمر قومه بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن قاتله إحقاقا للحق، وشهادة لله(تعالى) بالقدرة على إحياء الموتى.

ومن مزايا هذه السورة المباركة أن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " قد أوصى بقراءتها في البيوت فقال: لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة(أخرجه مسلم والترمذي).

وقال(عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) أيضا: اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة(رواه مسلم).

ويدور المحور الرئيسي لسورة البقرة حول قضية التشريع الإسلامي في العبادات والأخلاق والمعاملات، وإن لم تغفل ركائز العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتنزيه الخالق(سبحانه وتعالى) عن كل وصف لا يليق بجلاله من نحو افتراض الشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة أو الولد، وكلها من صفات المخلوقين ولا تليق بجلال الخالق(سبحانه وتعالى).

جاء في هذه السورة المباركة عدد كبير من الإشارات الكونية منها التأكيد على حقيقة أن الجنة(أي الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض) بالربوة المرتفعة عن كل من الهضاب والسهول المحيطة بها إذا أصابها وابل(أي مطر غزير) آتت أكلها ضعفين لأن احتمال إغراقها بماء المطر الغزير غير وارد لسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه نظرا لارتفاعها فوق أعلى منسوب للسهول المحيطة بها.

وفي حالة عدم هطول المطر الغزير فإن الطل أي رذاذ المطر الخفيف(أو الندى) يكفيها لري نباتاتها وطيب ثمارها ووفرة عطائها. والمقصود بذلك أن الجنة بالربوة العالية تزكو وتزدهر وتثمر وتجود بعطائها سواء كثر المطر عليها أو قل.

وقد وصفت سورة البقرة إنفاق الصالحين من عباد الله، الذين لايبغون من وراء إنفاقهم إلا مرضاة الله والثبات على الحق بأنه يزكو عند الله ويطيب(زاد قدره أم قل) تماما كما يزكو عطاء الجنة بالربوة العالية زاد المطر عليها أو قل.

وقبل الدخول إلى ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين في تفسير تلك الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله(تعالى):

ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير(البقرة:٢٦٥)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

* ذكر ابن كثير(يرحمه الله) ما مختصره: وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك (وتثبيتا من أنفسهم) أي وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم عن ذلك أوفر الجزاء..
قال الشعبي:(وتثبيتا من أنفسهم أي تصديقا ويقينا).

وقوله تعالى: (كمثل جنة بربوة) أي كمثل بستان بربوة، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار
وقوله تعالى:(أصابها وابل) وهو المطر الشديد...(فآتت أكلها) أي ثمرتها(ضعفين) أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان،(فإن لم يصبها وابل فطل).

قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدا لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدا بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل بحسبه، ولهذا قال:(والله بما تعملون بصير) أي لا يخفي عليه من أعمال عباده شئ
* وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) ما مختصره:(ومثل) نفقات(الذين ينفقون أموالهم ابتغاء) طلب (مرضات الله وتثبيا من أنفسهم) أي: تحقيقا للثواب عليه، بخلاف المنافقين الذين لا يرجونه، لإنكارهم له و(من) ابتدائية(كمثل جنة) بستان(بربوة) بضم الراء وفتحها، مكان مرتفع مستو(أصابها وابل فأتت) أعطت(أكلها) بضم الكاف وسكونها، أي: ثمرها(ضعفين) مثلي ما يثمر غيرها(فإن لم يصبها وابل فطل) مطر خفيف، يصيبها ويكفيها لارتفاعها، المعنى: تثمر وتزكو، كثر المطر أم قل فكذلك نفقات من ذكر، تزكو عند الله كثرت أم قلت (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم به.

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن(رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه:(وتثبيتا من أنفسهم) أي كما أنفقوا أموالهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته أنفقوها توطينا لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وترك ما يفسدها، ف(من) بمعنى اللام، أو تثبيتا للإسلام وتصديقا به، وتحقيقا للجزاء الموعود به من أصل أنفسهم، فهي الدافعة له وهي المنشأ والمبتدأ.(جنة) تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة، وهي الأنسب هنا، كما تطلق على الأرض المشتملة عليها.
(بربوة) بمكان من الأرض مرتفع عن السيل، والعادة في أشجار الربى أن تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا.
(أكلها) ثمرها. وكل مأكول: أكل.(فطل) فمطر خفيف يكفيها لطيبها وكرم منبتها. والطل: أضعف المطر وهو الرذاذ، وجمعه طلال وطلل.
والمراد: أن هذه الجنة تزكو وتثمر، كثر المطر أو قل، فكذلك نفقة هؤلاء ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم تزكو عند الله وتطيب، كثرت أو قلت.

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم(جزاهم الله خيرا) ما نصه: حال الذين ينفقون أموالهم طلبا لمرضاة الله وتثبيتا لأنفسهم على الإيمان، كحال صاحب بستان بأرض خصبة مرتفعة يفيده كثير الماء وقليله، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين، وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفي لإثماره لجودة الأرض وطيبها، فهو مثمر في الحالتين "فالمؤمنون المخلصون لا تبور أعمالهم " والله لا يخفى عليه شئ من أعمالكم.
وجاء تعليق الخبراء في الهامش بالنص التالي: في تعبير القرآن الكريم بكلمة ربوة وهي الأرض الخصبة المرتفعة إشارة إلى ما كشفه العلم الحديث لأنه بارتفاعها تبعد عن المياه الجوفية ليغوص المجموع الجذري في التربة من غير ماء يضره، ويتضاعف عدد الشعيرات الماصة لأكبر كمية من الغذاء للسيقان والمجموع الخضري فيتضاعف المحصول، وللوابل من الأمطار فائدة فوق التغذية أنه يذيب بعض المواد التي لا تحتاج إليها النباتات، ويغسلها من التربة لأن وجودها مما يعطل نمو النباتات، كما يغسلها من الآفات.
* وجاء في كل من تفسير الطبري والظلال(رحم الله كاتبيه برحمته الواسعة) وصفوة التفاسير(جزى الله كاتبها خيرا) كلام مشابه ولا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

من الأمور المشاهدة أن سطح الأرض ليس تام الاستواء، فهناك القمم السامقة للسلاسل الجبلية، وهناك السفوح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهابطة، لتلك السلاسل حتى تصل إلى السهول المنبسطة والممتدة إلى ما فوق مستوى سطح البحر بقليل.
وبين القمم السامقة والسهول المنبسطة نجد الروابي أو الربي(جمع ربوة أو رابية)، والتلال جمع تل، والأكام (جمع أكمة) وهي النتوءات الأرضية المختلفة دون الربوة، ثم الهضاب(جمع هضبة) أو النجود(جمع نجد)، ثم السهول ومن بعد السهول يأتي كل من المنخفضات الأرضية على اليابسة، والمنخفضات البحرية(المغمورة بماء البحار والمحيطات)،

ويرجع السبب في تباين تضاريس سطح الأرض إلى اختلاف التركيب الكيميائي والمعدني للصخور المكونة لها، وبالتالي إلى اختلاف كثافة تلك الصخور، وذلك لأن كتل الغلاف الصخري للأرض تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي يحكمها في ذلك قانون الطفو: تماما كما تطفو جبال الجليد في ماء المحيطات.
ويصل ارتفاع أعلى نقطة على سطح الأرض(وهي قمة جبل إفرست في سلسلة جبال الهمالايا) إلى٨٨٤٨ مترا فوق مستوى سطح البحر، بينما يقدر منسوب أخفض نقطة على اليابسة(وهي حوض البحر الميت) بحوالي الأربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بحوالي٨٤٠ مترا فوق مستوى سطح البحر.
وفي المقابل يصل أكثر أغوار المحيطات عمقا(وهو غور ماريانا في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين) إلى أكثر قليلا من(١١) كيلو مترا، بينما يصل متوسط أعماق المحيطات إلى حوالي الأربعة كيلو مترات (٣٧٢٩ إلى٤٥٠٠ متر) تحت مستوى سطح البحر.

وهذا التباين في المناسيب وفر عددا هائلا من البيئات التي يتناسب كل منها مع أنواع محددة من صور الحياة، ومن ذلك أن أشجار الفاكهة والكستناء وأشجار الثمار بصفة عامة تجود في الهضاب والنجود والروابي دون الألف متر فوق مستوى سطح البحر، بينما يتوقف نمو الحبوب ودرنات البطاطس عند حوالي الألفي متر فوق مستوى سطح البحر(٢١٦٠ مترا تقريبا) ويصل الحد الأعلى لنمو الغابات إلى حوالي٢٦٦٠ مترا فوق مستوى سطح البحر.
وتحديد بيئة الروابي للجنة المضروب بها المثل في الآية الكريمة التي نحن بصددها تحديد معجز لأن هذه البيئة هي أفضل البيئات المعروفة لنا لنمو أشجار الفاكهة ولنمو كل من أشجار الثمار الأخرى كالزيتون واللوزيات والصنوبريات وغيرها وذلك لأن بيئة الروابي تتميز بلطف مناخها، ووفرة مائها، وزيادة فرص تعرضها لأشعة الشمس، ولأمطار السماء، ولرطوبة الجو، ولحركة الرياح، ولتجدد الهواء حولها، وكذلك فهي أنسب البيئات لنمو الأشجار بصفة عامة، ولنمو أشجار الثمار بصفة خاصة.

فالروابي من أشكال سطح الأرض المستوية والمرتفعة فوق مستوى سطح البحر ارتفاعا متوسطا يتراوح بين الثلاثمائة والستمائة متر. لأنها دون الجبل وفوق التل، وعلى ذلك فإن ماء المطر لا يغرقها مهما انهمر بغزارة لاندفاعه بالجاذبية إلى المستويات الأقل في منسوبها من الربوة في المنطقة المحيطة بها وذلك بعد تشبع تربتها وصخورها بالقدر اللازم من الماء المرطب لها والمخزون فيها. وضبط هذا المخزون المائي يساعد النبات علي القيام بجميع أنشطته الحيوية بكفاءة دون إغراق أو جفاف، وذلك لأن الجفاف يقضي على النبات، كما أن الإغراق بالماء، أو الزيادة في مخزون الصخور والتربة منه يؤدي إلى تعفن جذوره وتعطنها وتحللها مما يؤدي كذلك إلى القضاء عليه.
وعند هطول المطر على الربوة فإن كلا من تربتها وصخورها، والنباتات النامية عليها يأخذ كفايته من الماء بينما يفيض الزائد عن تلك الكفاية إلى المناسيب الأخفض حتى يصل إلى الأودية والسهول المحيطة بالربوة. ويساعد انضباط كمية المخزون المائي في تربة وصخور الربوة على امتداد المجموع الجذري للنباتات بصفة عامة، وللأشجار منها بصفة خاصة إلى أبعاد أعمق في كل من التربة والصخور مما يضاعف من كمية العناصر والمركبات التي يتاح لجذور النبات الوصول إليها وامتصاصها مع عصارته الغذائية التي تستخلصها تلك الجذور من الأرض، كما يساعد على زيادة تثبيت النباتات بالأرض ومقاومته لشدة هبوب الرياح، وغيرها من المتغيرات البيئية.

ومن مميزات بيئة الروابي أنها إذا نزلت بها الأمطار هاطلة تضاعف إنتاجها وإذا تضاءلت الرطوبة في الجو من حولها إلى الرذاذ أو الندى فقط فإنها تعطي ثمارها وافرة، لأن نباتات الربوة يمكنها الاستفادة بماء المطر مهما قل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبماء الندى الذي يتكثف من حولها بمعدلات أعلى من تكثفة في السهول أو في بطون الأودية المغلقة خاصة في المناطق الجافة.
وعلى ذلك فإن إثمار كل من أشجار الفاكهة، وغيرها من أشجار الثمار الأخرى كالزيتون واللوزيات والصنوبريات يجود بشكل ملحوظ في الروابي المرتفعة فوق مستوى سطح البحر عنها في السهول المنبسطة والأودية المغلقة، وذلك لأنها إذا أصابها المطر الغزير أفادها ولم يضرها لسرعة انحسار مائه عنها بعد ريها ريا كافيا فتتحسن وتثمر ثمرا مضاعفا وإن لم يصبها هذا الوابل من المطر الغزير فإن الرذاذ الخفيف أو الندى المتكثف حولها يمكن أن يوفيها حاجتها من الماء فتستمر في الحياة وتؤتي أكلها بإذن الله.

هذا وقد شبهت الآية الكريمة المؤمنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، وابتغاء التثبيت من أنفسهم(مهما تكن إمكاناتهم المادية) بالجنة من الأشجار المثمرة النامية على الربوة المرتفعة تحت ظروف بيئية طيبة وفرت لها كل أسباب النماء والعطاء فأثمرت وأعطت بسخاء شديد إذا نزل عليها ماء المطر، وبسخاء أيضا إذا قل عليها المطر، فعطاؤها لا يتوقف ولا ينقطع تحت مختلف الظروف وكذلك المؤمنون الذين ينطلقون من منطلق الإيمان الجازم بأن الله(تعالى) هو الرزاق ذو القوة المتين فيبذلون في سبيله سواء كثرت إمكاناتهم أو قلت، وذلك طلبا لمرضاته، وتثبيتا من أنفسهم لأن من وسائل تربية النفس الإنسانية إخراج المال في سبيل الله، وفي ذلك يقول ربنا(تبارك وتعالى):
ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير (البقرة:٢٦٥)

وفي هذه الآية الكريمة إشارة واضحة إلى تفضيل زراعة أشجار الثمار في أراضي الروابي بصفة عامة، وهي أراض مسطحة مرتفعة، دون الجبل، وفوق التل(يتراوح ارتفاعها بين ثلاثمائة وستمائة من الأمتار فوق مستوى سطح البحر)، وهذه حقيقة علمية أثبتتها التجارب على مدى عقود متتالية، وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أمي(صلى الله عليه وسلم) في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين وكانت تعيش في صحراء جرداء قاحلة، لا تعرف الجنات ولا تعرف الأشجار المثمرة غير نخيل التمر وبعض الأعناب إلا في أماكن محدودة جدا منها، ومن هنا يأتي هذا الوصف القرآني شاهدا للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله(صلى الله عليه وسلم).
ولكونه الرسالة الخاتمة فقد تعهد ربنا(تبارك وتعالى) بحفظه بنفس لغة وحيه(اللغة العربية) فحفظه كلمة كلمة، وحرفا حرفا، من أية زيادة أو نقص، أو تبديل أو تغيير على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنا وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها وذلك تحقيقا للوعد الإلهي الذي قال(تعالى) فيه:
إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(الحجر:٩)
فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله في الآخرة والأولى والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، تبع هداه و دعا بدعوته إلى يوم الدين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com